

## تفسير سورة القمر

وهي مكية

قد تقدم في حديث أبي واقد (١) : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف، واقتربت الساعة، في الأضحى والفطر، وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار، لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد وبدء الخلق وإعادته، والتوحيد وإثبات النبوات، وغير ذلك من المقاصد العظيمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
 ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيُقُولُوا يَبْحَرُ مُسْتَسِيرٌ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا  
 وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ﴿٤﴾  
 حِكْمَةٌ بَلِيغَةٌ فَمَا تُصْنِئُ التَّدْرُجُ ﴿٥﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها، كما قال تعالى: ﴿ أُنزِلَ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل: ١]، وقال: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١]، وقد وردت الأحاديث بذلك، روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ والشمس على قُعبَمان بعد العصر، فقال: أما أعماركم في أعمار من مضى إلا كما بقي من النهار فيما مضى (٢). وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ هَكَذَا». وأشار بإصبعه: السبابة والوسطى. أخرجاه (٣). وروى الإمام أحمد عن خالد بن عمير قال: خطب عتبة بن عَزْرَوَانَ - قال بهز: وقال قبل هذه المرة - خطبنا رسول الله ﷺ قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن الدنيا قد أذنت بصبرم وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صِيبَاة كصِيبَاة الإناة يتصايبها صاحبها، وإنكم متقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما يحضرتكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفير جهنم فيهوى فيها سبعون عاما ما يدرك لها قرعاً، والله لتملونه، أفصجتيم ! والله لقد ذكر لنا أن ما بين مصراعَي الجنة مسيرة أربعين عاما، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ الزحام» وذكر تمام الحديث، انفرد به مسلم (٤).

وقوله: ﴿ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ : قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ، كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: «خمس قد مضين: الروم، والدخان، واللزام، والبطشة، والقمر» (٥). وهذا أمر مضى عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات. روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: سألت أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة مرتين، فقال: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾. ورواه

(١) وذلك عند تفسير سورة «ق» في أولها.

(٢) المسند (٥٩٦٦) وقال الشيخ أحمد شاکر : «إسناده صحيح».

(٣) المسند (٣٣٨/٥) والبخارى (٦٥٠٣) ومسلم (١٣٢/٢٩٥٠).

(٤) المسند (١٧٤/٤) ومسلم (١٤/٢٩٦٧). (٥) البخارى (٤٧٦٧).

مسلم (١). وروى البخارى عن أنس بن مالك؛ أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقيين، حتى رأوا حراء بينهما (٢). وروى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين: فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد. فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه (٣). وروى البخارى عن ابن عباس قال: انشق القمر في زمان رسول الله ﷺ. ورواه مسلم (٤). وروى الحافظ أبو بكر البيهقي عن عبد الله بن عمر في قوله تعالى: ﴿ اقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فَلَغَتَيْنِ: فَلَغَةُ من دون الجبل، وفَلَغَةُ من خلف الجبل، فقال النبى ﷺ: «اللهم اشهد». رواه مسلم والترمذى، وقال الترمذى: حسن صحيح (٥). وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين حتى نظروا إليه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا». رواه البخارى ومسلم (٦).

وقوله: ﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً ﴾ أى: دليلاً وحجةً وزيهانا ﴿ يَمْضُوا ﴾ أى: لا ينفقون له، بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم، ﴿ وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ أى: ويقولون: هذا الذى شاهدناه من الحجج، سحر سحرنا به. ومعنى ﴿ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ أى: ذاهب. قاله مجاهد، وقتادة، وغيرهما، أى: باطل مضمحل، لا دوام له. ﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى: كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أمرتهم به آراءهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقولهم. وقوله: ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ قال قتادة: معناه: أن الخير واقع بأهل الخير، والشر واقع بأهل الشر. وقال ابن جريج: مستمر بأهله. وقال مجاهد: ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ أى: يوم القيامة. وقال السدى: ﴿ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ أى: واقع.

وقوله: ﴿ وَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ ﴾ أى: من الأخبار عن قصص الأمم المكذبة بالرسول، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب، مما يتلى عليهم فى هذا القرآن، ﴿ مَا فِيهِ مُّزْدَجَرٌ ﴾ أى: ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتماذى على التكذيب. وقوله: ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ أى: فى هدايته تعالى لمن هدها واضلّاله لمن أضله ﴿ فَمَا تَعْنِ النَّذْرُ ﴾ يعنى: أى شيء تعنى النذر عن كتب الله عليه الشقاوة، وختم على قلبه؟ فمن الذى يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقولته تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وكذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَعْزِي (٧) الْأَيَّاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿ قَوْلَ عَنَّهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكُرٍ ﴾ ﴿ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ ﴿ مَهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾

يقول تعالى: فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يمرضوا ويقولوا: هذا سحر مستمر، أعرض عنهم وانتظرهم ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكُرٍ ﴾ أى: إلى شيء منكر فظيع، وهو موقف الحساب، وما فيه من البلاء، بل والزلازل والأهوال ﴿ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ ﴾ أى: ذليلة أبصارهم ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾

(١) المسند (١٦٥/٣) ومسلم (٤٦/٢٨٠٢). (٢) البخارى (٣٨٦٨). (٣) المسند (٨١/٤). (٤) البخارى (٣٦٣٨، ٤٨٦٦) ومسلم (٤٨/٢٨٠٣). (٥) البيهقي فى الدلائل (٢٦٧/٢) ومسلم (٢٨٠١) والترمذى (٣٢٢٨٨). (٦) المسند (٣٥٨٣) والبخارى (٤٨٦٤) ومسلم (٤٣/٢٨٠٠). (٧) فى المطبوعة والمخطوطة: «فما تعنى» وهو خطأ، صوابه ما أبتناه.

وهي: القبور ﴿ كَانَهُمْ جُرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴾ أى: كأنهم فى انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعى ﴿ جُرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴾ فى الآفاق؛ ولهذا قال: ﴿ مُنْهَبِينَ ﴾ أى: مسرعين ﴿ إِلَى الدَّاعِ ﴾ لا يخالفون ولا يتأخرون ﴿ يَهْوُونَ الكَاثِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسِيرٍ ﴾ أى: يوم شديد الهول عيبوس قمطيرير ﴿ فذلِكَ يَوْمَئِذٍ عَسِيرٌ عَلَى الكَاثِرِينَ عَسِيرٌ ﴾ [المدثر: ٩، ١٠].

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ﴿١٠﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ﴿١١﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١٢﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٣﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدَسَّرَ ﴿١٤﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَسَرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ﴾ قبل قومك يا محمد ﴿ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ أى: صرحوا له بالتكذيب واتهموه بالجنون، ﴿ وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ﴾ قال مجاهد: ﴿ وَازْدَجَرَ ﴾ أى: استطير جنونا. وقيل: ﴿ وَازْدَجَرَ ﴾ أى: انتهوه ورجوه وتواعده: ﴿ فَمَنْ لَمْ تَنْتَهُ بِأَوْحٍ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٦]. قاله ابن زيد، وهذا متوجه حسن. ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ﴾ أى: إني ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم ﴿ فَأَنْصِرْ ﴾ أنت لدينك.

قال الله تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ قال السدى: هو الكثير ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ أى: نبعت جميع أرجاء الأرض، حتى التناير التي هي محال النيران نبعت عيوننا ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ ﴾ أى: من السماء والأرض ﴿ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أى: أمر مقدر. قال ابن عباس: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾: كثير، لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده، ولا من السحاب؛ فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحب ذلك اليوم، فاللقى الماءان على أمر قد قدر. ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدَسَّرَ ﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، والقرظي، وقتادة، وابن زيد: هي المسامير، واختاره ابن جرير، قال: وواحدما دسار، ويقال: دسير. وقال مجاهد: الدسر: أضلاع السفينة. وقال عكرمة والحسن: هو صدرها الذي يضرب به الموج. وقال الضحاك: الدسر: طرفها وأصلها. وقال العوفي، عن ابن عباس: هو كَلَّكَلْهَا.

وقوله: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ أى: بأمرنا بما رأى منا ونحت حفظنا وكلاءتنا ﴿ جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا ﴾ أى: جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصاراً لنوح، عليه السلام. وقوله: ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً ﴾ قال قتادة: أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة. والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن، كقوله تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ . وَحَمَلْنَا لَهُمْ مِنْ فِئَةٍ مَا بُرِئُوا مِنْهُ ﴾ [يس: ٤١، ٤٢]. وقال: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أَدْنَىٰ وَأَعْيَا ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ أى: فهل من يتذكر ويتعظ؟ روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: أقرأني رسول الله ﷺ: ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ فقال رجل: يا أبا عبد الرحمن، مُدَكَّرٌ أو مُدَكِّرٌ؟ قال: أقرأني رسول الله ﷺ: ﴿ مُدَكِّرٌ ﴾ (١). وهكذا رواه البخاري عن عبد الله قال: قرأت على النبي ﷺ: ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾. فقال النبي ﷺ: ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ (٢). وعن أبي إسحاق؛ أنه سمع رجلاً يسأل الأسود: ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾، أو: ﴿ مُدَكِّرٍ ﴾؟ قال:

(١) المسند (٣٧٥٥) وقال الشيخ شاکر: «إسناده صحيح» . (٢) البخاري (٤٨٦٩ ، ٤٨٧٤) .

سمعت عبد الله يقرأ: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾. وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأها: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ دالا. وقد أخرج مسلم هذا الحديث وأهل السنن إلا ابن ماجه<sup>(١)</sup>. وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ أي: كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذب رسلي ولم يتعظ بما جاءت به نُذري، وكيف انتصرت لهم، وأخذت لهم بالشار.

﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أي: سهلنا لفظه، ويسرنا معناه لمن أراد، ليتذكر الناس. كما قال: ﴿كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَذَّبُوا أَبَاهِمْ فَلْيَذْكُرُوا الْأَنْبَاءَ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿لِنُنشِئَنَّهُ بِسَانِكَ لِنُنشِرَ بِهِ الْمُطِيعِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مریم: ٩٧]. قال مجاهد: ﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ يعني: هوَنا قراءته. وقال السدي: يسرنا تلاوته على الالسن. وقال ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان الأدميين، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله، عز وجل. قلت: ومن تيسره، تعالى، على الناس تلاوة القرآن ما تقدم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف»<sup>(٢)</sup>.

وقوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ أي: فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يسر الله حفظه ومعناه؟ وقال محمد بن كعب القرظي: فهل من متزجر عن المعاصي؟ وعن مطر الوراق في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾: هل من طالب علم فيعان عليه؟ وروى عن قتادة مثله.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَسْتَمِيرِ﴾ ﴿تَنَزَّعَ النَّاسُ كَانْتِهَامًا نَحْلًا مُنْقَعِرٍ﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ ﴿وَلَا تَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ ﴿﴾

يقول تعالى مخبرا عن عاد قوم هود: إنهم كذبوا رسولهم أيضا، كما صنع قوم نوح، وأنه تعالى أرسل عليهم ريحا صرصرا، وهي الباردة الشديدة البرد، ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسِي﴾ أي: عليهم. قاله الضحاك، وقاتدة، والسدي ﴿نَسْتَمِيرِ﴾ عليهم نحوه ودماره؛ لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدينوي بالاخروي.

وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّعَ النَّاسُ كَانْتِهَامًا نَحْلًا مُنْقَعِرٍ﴾ وذلك ان الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تنبيه عن الابصار، ثم تنكسه على أم رأسه، فيسقط إلى الارض، فتلغ رأسه فيبقى جثة بلا رأس؛ ولهذا قال: ﴿كَانْتِهَامًا نَحْلًا مُنْقَعِرٍ﴾. فكيف كان عذابي ونذري. ﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ ﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَجَدْنَا نَبْعُهُمْ إِنَّا إِذْ لَبِي سَمَلًا وَسُعْرٍ﴾ ﴿أَلَيْسَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشِيرٌ﴾ ﴿سَيَعْمُونَ عَدَا مَنِ الْكُذَّابِ الْأَشِيرِ﴾ ﴿إِنَّا مُرْسَلُونَ النَّاقَةَ فَبَنَتْ لَهُمْ فَأَرْقَبَهُمْ وَأَصْطَبِرُ﴾ ﴿وَيَتَّبِعُهُمْ أَنْ الْمَاءَ فَسَمَهُ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُخْتَصِرٌ﴾ ﴿فَادَاؤًا صَاحِبَهُمْ فَطَاطُنُ فَعَمَرُ﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحُمْطِرِ﴾ ﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ ﴿﴾

وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحا ﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَجَدْنَا نَبْعَهُ إِنَّا إِذْ لَبِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ﴾

(١) البخاري (٤٨٧١) ومسلم (٨٢٣/٢٨٠) وأبو داود (٣٩٩٤) والترمذي (٢٩٣٧).

(٢) البخاري (٤٩٩٢).

يقولون: لقد خبتنا وخسرنا إن سلمنا كلنا قيادنا لواحد منا! ثم تعجبوا من إلقاء الوحى عليه خاصة من دونهم، ثم رموه بالكذب فقالوا: ﴿ بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ ﴾ أى: متجاوز فى حد الكذب. قال الله تعالى: ﴿ سَيُطْمَوْنَ غَدًا مِنْ الْكُذَّابِ الْأَشْرِ ﴾ وهذا تهديد لهم شديد ووعيد أكيد. ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَتَةَ لَهُمْ ﴾ أى: اختارنا لهم؛ أخرج الله لهم ناقه عظيمة عُشراء من صخرة صَمَاءَ طبق ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم فى تصديق صالح، عليه السلام، فيما جاءهم به.

ثم قال تعالى أمرا لعبده ورسوله صالح: ﴿ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴾ أى: انتظر ما يؤول إليه أمرهم، واصبر عليهم، فإن العاقبة والنصر لك فى الدنيا والآخرة ﴿ وَرَبِّهِمْ أَنْ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ أى: يوم لهم ويوم للناقة؛ كقولته: ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴾ [الشعراء: ١٥٥]. وقوله: ﴿ كُلُّ شَرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾ قال مجاهد: إذا غابت حضروا الماء، وإذا جاءت حضروا اللبن. ثم قال تعالى: ﴿ فَادْرَأْ صَاحِبَهُمْ فَطَاطَى فَعَقَرُ ﴾ قال المفرون: هو عاقر الناقة، واسمه قَدَار بن سالف، وكان اشقى قومه. كقولته: ﴿ إِذْ أَنْبَأْتُ شِئْقَانَا ﴾ [الشمس: ١٢]، ﴿ فَطَاطَى ﴾ أى: خسرت ﴿ فَعَقَرُ ﴾ فكيف كان عذابي ونذري؟ أى: فعاقبتهم، فكيف كان عقابي لهم على كفرهم بى وتكذيبهم رسولى؟ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ أى: فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية، وخمدوا وهمدوا كما يهدم بيس الزرع والنبات. قاله غير واحد من المفسرين. والمحتظر قال السدى: هو المرعى بالصحراء حين يبس ويحترق وتصفيه الريح. وقال ابن زيد: كانت العرب يجعلون حظائرًا على الإبل والمواشى من بيس الشوك، فهو المراد من قوله: ﴿ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذُرِّ ﴾ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ ﴿ يَوْمَ نَبَأَ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ ﴿ وَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالَّذُرِّ ﴾ ﴿ وَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَيْفِيهِ فطمسنا عينيهم فَدَرُوا عَنَّا وَيَنْدُرُ ﴾ ﴿ وَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴾ ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَيَنْدُرُ ﴾ ﴿ وَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ ﴿

يقول تعالى مخبرًا عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور، وهى الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين؛ ولهذا أهلكهم الله هلاكًا لم يهلكه أمة من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريل، عليه السلام، فحمل مدانتهم حتى وصل بها إلى عَنَانَ السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها، وأتيت بحجارة من سجل منضود؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ وهى: الحجارة ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ أى: خرجوا من آخر الليل فنجوا بما أصاب قومهم، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد حتى ولا امراته، أصابها ما أصاب قومها، وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالما لم يمسه سوء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾. ﴿ وَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا ﴾ أى: ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس الله وعذابه، فما التفتوا إلى ذلك، ولا أصغوا إليه، بل شكوا فيه وتماروا به، ﴿ وَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَيْفِيهِ ﴾ وذلك ليلة ورد عليه الملائكة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل فى صورة شباب مُرد حسان محنّة من الله بهم، فأصافهم لوط عليه السلام، وبعثت امراته المعجوز السوء إلى قومها، فأعلمتهم بأضياف لوط، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، وذلك عشية، ولوط، عليه السلام، يدافعهم ويحتمهم دون

أضيافه، ويقول لهم: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ يعنى: نساءهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١]، ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أى: ليس لنا فيهن أرب ﴿وَأَنْتَ تَقْلُمُ مَا نُؤْيِدُ﴾ [مرد: ٧٩]، فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول، خرج عليهم جبريل، عليه السلام، فضرب أعينهم بطرف جناحه، فانطمست أعينهم. يقال: إنها غارت من وجوههم. وقيل: إنه لم تبق لهم عيون بالكلية، فرجعوا على أديبارهم يتحسسون بالحيطان، ويتوعدون لوطا، عليه السلام، إلى الصباح.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ أى: لا محيد لهم عنه، ولا انفكاك لهم منه، ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرِي﴾. ولقد يسرنا القرآن للذکر فهل من مدکر ﴿

﴿وَلَقَدْ جَاءَ مَالِ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ﴾ ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَادِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ ﴿سَيُجْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ﴾ ﴿

يقول تعالى مخبرا عن فرعون وقومه أنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون بالشارة إن آمنوا، والنذارة إن كفروا، وأيدهما بمعجزات عظيمة وآيات متعددة، فكذبوا بها كلها، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، أى: فأبادهم الله ولم يبق منهم مخبرا ولا عينا ولا أثرا. ثم قال تعالى: ﴿أَكْفَارُكُمْ﴾ أى: أيها المشركون من كفار قريش ﴿خير من أولادكم﴾ يعنى: من الذين تقدم ذكرهم ممن اهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل، وكفرهم بالكتب: أأنتم خير أم أولادكم؟ ﴿أم لكم براءة في الزُّبُرِ﴾ أى: أم معكم من الله براءة إلا ينالكم عذاب ولا نکال؟

ثم قال تعالى مخبرا عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ أى: يعتقدون أنهم يتناصرون بعضهم بعضا، وأن جمعهم يعنى عنهم من أرادهم بسوء، قال الله تعالى: ﴿سَيُجْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ أى: سيتفرق شملهم ويغلبون. عن ابن عباس؛ أن النبي ﷺ قال - وهو فى قبة له يوم بدر: «أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم فى الأرض أبدا». فأخذ أبو بكر بيده وقال: حبسك يارسول الله! ألححت على ربك. فخرج وهو يشب فى الدرع وهو يقول: ﴿سَيُجْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾. بل السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ. رواه البخارى والنسائى<sup>(١)</sup>. وروى البخارى عن يوسف بن ماهك قال: إنى عند عائشة أم المؤمنين، قالت: نزل على محمد ﷺ بمكة - وإنى لجارية الحب - ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ﴾ هكذا رواه هاهنا مختصرا<sup>(٢)</sup>. ورواه فى فضائل القرآن مطولا<sup>(٣)</sup>، ولم يخرج مسلم.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ ﴿يَوْمَ يُسْجَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدْرِ﴾ ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَدَّكِرٍ﴾ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ ﴿إِنَّ اللَّائِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ﴾ ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ ﴿

(١) البخارى (٢٩١٥ ، ٣٩٥٣ ، ٤٨٧٥ ، ٤٨٧٧) والنسائى فى الكبرى (١١٥٥٧).

(٢) البخارى (٤٩٩٣).

(٣) البخارى (٤٨٧٦).

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق، وسعُر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق.

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي: كما كانوا في سَعُرٍ وشك وتردد أورثهم ذلك النار، وكما كانوا ضلالاً، يسحبون فيها على وجوههم، ولا يدرون أين يذهبون، ويقال لهم تقريباً وتوبيخاً: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ كقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ قَدْرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] وكقوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّىٰ . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الاعلى: ٣-١] أي: قدر قدراً، وهدى الخلائق إليه ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقهم، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابتها لها قبل برئها، وردوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات، وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتة على الفرقة القدرية الذين نبهوا في أواخر عصر الصحابة. ولنذكر هاهنا الأحاديث المتعلقة بهذه الآية الكريمة: روى أحمد عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونهم في القدر، فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾. رواه مسلم والترمذي وابن ماجه (١). وروى الإمام أحمد عن نافع قال: كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكتبه، فكتب إليه عبد الله بن عمر: إنه بلغني أنك تكلمت في شيء من القدر، فإياك أن تكتب إلي، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون في أمي أقوام يكذبون بالقدر». ورواه أبو داود (٢). وروى أحمد عن طائفة اليماني قال: سمعت ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر، حتى المعجز والكيس». ورواه مسلم (٣).

وفي الحديث الصحيح: «استعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك أمر فقل: قدر الله وما شاء فعل، ولا تقل: لو أني فعلت لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان» (٤). وفي حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال له: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفكوك بشيء، لم يكتبه الله لك، لم ينفكوك. ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يكتبه الله عليك، لم يضروك. جفت الأقلام وطويت الصحف» (٥). وروى الإمام أحمد عن الوليد بن عباد، قال: دخلت على عيادة وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا ابتاه، أوصني واجتهد لي. فقال: اجلسوني. فلما أجلسوه قال: يا بني، إنك لم تطعم طعم الإيمان، ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره. قلت: يا ابتاه، وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك. يا بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم. ثم قال له: اكتب. فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» يا بني، إن مت ولست على ذلك دخلت النار. ورواه الترمذي. وقال: حسن صحيح غريب (٦). وقد ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض

(١) المسند (٢/٤٤٤) ومسلم (٢٦٥٦) والترمذي (٣٢٩٠) وابن ماجه (٨٣).

(٢) المسند (٥٦٣٩) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» وأبو داود (٤٦١٣).

(٣) المسند (٥٨٩٣) ومسلم (١٨/٢٦٥٥).

(٤) مسلم (٣٤/٢٦٦٤).

(٥) المسند (٢٦٦٩) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(٦) المسند (٥/٣١٧) والترمذي (٣٣١٩).

بخمسين ألف سنة» زاد ابن وهب: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» [هود:٧]. ورواه الترمذى وقال: حسن صحيح غريب(١).

وقوله: «وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ»: وهو إخبار عن نفوذ مشيئة في خلقه كما أخبر بنفوذ قدره فيهم، فقال: «وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ» أى: إنما نأمر بالشىء مرة واحدة، لا نحتاج إلى تأكيد بثانية، فيكون ذلك الذى نأمر به حاصلًا موجودًا كلمح البصر، لا يتأخر طرفة عين. وقوله: «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ» يعنى: أمثالكم وسلفكم من الأمم السالفة المكذبين بالرسول، «فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ» أى: فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك، وقدر لهم من العذاب، كما قال: «يُرْجِلُ بَيْنَهُمْ وَيَمِينُ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فَعَلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ» [سبا: ٥٤]. وقوله: «وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ» أى: مكتوب عليهم فى الكتب التى بأيدي الملائكة، عليهم السلام «وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ» أى: من أعمالهم «مُسْتَقَرٌّ» أى: مجموع عليهم، ومسطر فى صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. وقد قال الإمام أحمد عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالبا». ورواه النسائى وابن ماجه (٢).

وقوله: «إِنَّ الْمُظْمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ» أى: بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر، والسحب فى النار على وجوههم، مع التوبيخ والتقريع والتهديد. وقوله: «فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ» أى: فى دار كرامة الله ورضوانه وفضله، وامتنانه وجوده وإحسانه «عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ» أى: عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما شاء مما يطلبون ويريدون؛ وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو(٣) - يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ - قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون فى حكمهم وأعليهم وما ولوا». انفرد بإخراجه مسلم والنسائى(٤).

(١) مسلم (١٦/٢٦٥٣) والترمذى (٢١٥٦).

(٢) المسند (١٥١/٦) وابن ماجه (٤٢٤٣)، وفى الزوائد: «إسناده صحيح، رجاله ثقات»، وهزاه صاحب التحفة (١٢/٢٥٠) للنسائى فى الكبرى وابن ماجه، ولكنه استترك وقال: حديث النسائى ليس فى الرواية ولم يذكره أبو القاسم.

(٣) فى المطبوعة: «عبد الله أبى عمر» وهو خطأ.

(٤) المسند (٦٤٩٢) ومسلم (١٨/١٨٢٧) والنسائى (٥٣٧٩).